الأنوار
AL ANWAR AL ANWAR
13 Beyrouth □ Mercredi 19 Janvier 2000 □ 40e Année □ No. 13901 الأنوار
إنوار ١٣ بيروت □ الاربعاء ١٩ كانون الثاني ٢٠٠٠ □ السنة ٤٠ □ العدد ١٣٩٠١

قراءة اولى في كتاب الايزوتيريك

«علم المعرفة ومعرفة العلم»

الوحدة هي الاساس، وهي محور كل شيء، الوجود كل بدا من خالق واحد، هو محور الوجود الكلي ... من محور الوجود الكلي انبثقت المعرفة الكاملة، حيث كانت قوتها تكمن في وحدتها. ولقد سعى الانسان جاهداً عبر تطور الحضارات، لتطوير فكره عبر اكتساب المعرفة ... ولان المعرفة وحدة، لم يتمكن من استيعابها دفعة واحدة، فقد عمد الى تجزئتها، او هي انعكست في اربعة ابعاد متنوعة، بحيث يعيها الانسان بعداً تلو الآخر ...

هذه الابعاد الاربعة هي: «الفلسفات لكل تشعباتها ... الاديان بكل مذاهبها ... العلوم بكل فروعها ... الفنون بكل انواعها. فمجموع هذه الابعاد يشكّل المعرفة الكاملة» كما جاء في كتاب الايزوتيريك» علم المعرفة ومعرفة العلم تاليف د. جوزف مجدلاني (ج.ب.م.)».

كل من فضّل احد هذه الابعاد وعمل على التعمق به، محاولاً بلوغ المعرفة من خلاله، وجد نفسه في نهاية المطاف اسير حلقة مغلقة، فما ان يوصله تعمّقه الى بعض الاجابات، حتى يبرز امامه المزيد من التساؤلات ... وما ان يصل الى حلول لبعض المشكلات، حتى يواجه بمشكلات اكبر ... وها هو الانسان لا يزال ومن خلال كل بعد من تلك الابعاد الاربعة، يسعى جاهداً نحو الاحتمال بالمعرفة ... فهل سيدرك يوماً سواء السبيل؟...

قبل التوسّع في هذا البحث، لا بد اولاً من التاكد ما اذا كانت المعرفة بكل ابعادها الخفية، هي مباحة امام الفكر البشري، ام ان لهذا الفكر حدوداً معينة لا يمكن، او لا يجب عليه تخطيها ...

لقيدنا علوم حقائق الباطن الانساني الايزوتيريك، في كتاب «المراة والرجل في مفهوم الايزوتيريك»، لمؤلفه د. جوزف مجدلاني، (ان الانسان في بداية وجوده الارضي، كان وحدة، اي ان (ادم وحواء) كانا كياناً واحداً موحداً مكتملاً ... تختلف مادته بشطلها وتركيبها ونظام وجودها عن وجود وكيان انسان اليوم. لقد كان كياناً متوهج الضياء، كان كياناً من نور ... تحييه نبضة من نبضات الرب الإله. وحدة كان، لانه من الوحدة انبثق كاملاً كان، لانه مجسد الكمال ومجسد الجمال الالوهي ...

كان الإله - الطفل. ودعي هذا الكائن بالانسان ...).

هذا الإله الطفل - آدم الانسان الكامل، استوطن الارض لا واعياً مكنونات نفسه او المعرفة الكامنة فيها ... وراح ينمو، واثناء مراحل وعيه على الارض، بدأ يتوعّى تدريجياً لما يكمن في كيانه من صفات الهية، وكان له لاجل ذلك وسائل التوعية اللازمة، بما قد تكون رمزت اليه ثمار اشجار الجنة، التي كانت مجازياً، تلك الوسائل التي سيتدرج عبرها لوعي المعرفة، التي رمزت اليها الشجرة «المحرمة» بحيث يدركها بعد ان تكتمل مقوّمات وعيه، ويتاهل تدريجياً لاستيعاب الوعي الاكبر الكامن فيها، بحيث تنضج من خلال هذا التدرّج والتاهيل، حكمة التصرف بابعاد المعرفة وخفاياها ...

كما يوضح لنا الكتاب المذكور «بأن الوجود كان للإنسان الكامل (آدم) تدرجاً في الوعي، وفي احدى مراحل التدرج تلك، حصلت عملية الانفصال او الثنائية (في جنسين) .. فكان ما حدث مع آدم. (الذي جاء ذكره في الاصحاح - الثاني من سفر التكوين عدد ٧). انفصل الانسان الكامل بعضه عن بعضه - اي انفصلت ميزاته - وانشطر في اثنين، فكان الرجل وكانت المراة ... اذن، ادم هو الانسان الكامل في البداية، ادم الذكر والانثى معا. اما الرجل والمراة فهما حصيلة لاحقة. يقول الاصحاح الخامس من سفر التكوين في عدد ٢١ بما لا يترك مجالاً للالتباس «يوم خلق الله الانسان، على مثال الله صنعه، ذكرا وانثى خلقه، وباركه وسمّاه ادم يوم خلقه».

بداية تفتح

من الواضح ان المرحلة التي اصبح فيها ادم، رجلاً وامراة كانت هي مرحلة بداية تفتح عنصر العقل في كيانه ... وبعدها، وقبل ان ينضج فيهما العقل تماماً، اقدما على ارتكاب الخطا الاول، المتمثل في محاولتهما اللاواعية معاً (المراة والرجل) الخروج عن المسار الصحيح للتطور، وبمعزل عن النظام الالهي الذي لم يكونا قد ادركاه بعد ... وبما ان عنصر العقل عند الانسان في ذلك الحين لم يكن قد اكتمل تكوّنه بعد، فان خطاه كان خطا لا واعياً. ولا يستوجب عقاباً قاسياً ... بل جرى تنبيهه وتصحيح مساره من جديد ... وما قصة خروجه من «جنة عدن» سوى رمز، قصد به انتقاله الى مسار اكثر ملائمة مع الحالة المادية التي ال اليها كيانه، بعد انشطاره الى كيانين مستقلين عن بعضهما البعض ... وعلى هذا المسار الجديد، تابع الانسان مراحل التطور بالوعي، التي كانت لا تزال تفصله عن ادراك المعرفة الكامنة فيه ... والاكتمال بوعيها ...

وكان التاريخ اعاد نفسه بعد عهود طويلة من التطور الايجابي. فما ان اصبح الانسان على قاب قوسين من اتمام مساره القدري على درب المعرفة الكاملة، حتى عاد الى ارتكاب الخطا نفسه ... لكن هذه المرة كان مدركاً تماماً ما يقوم به، فالعقل فيه كان قد تفتح واكتمل، ومداركه توسعت ونمت، والنظام الالهي اصبح واضحاً جلياً لوعيه، فاصبح تصرفه الخاطئ بحرية الاختيار، التي انعم بها عليه الخالق عزّ وجلّ، يحتم عليه تحمّل نتيجة خياراته ...

فحصل حينئذ ذلك الطوفان الاكبر، الذي اغرق القارة التي كانت مسرحاً لذلك الخطا وقضى على كل المتورطين فيه ... اما الذين لم يجرفهم تيار الخطا فقد كانوا قد ارتحلوا عن تلك الارض الملعونة بعد ان استشعروا الخطر المحدق بها ... وتابعوا في مكان آخر مراحل تطورهم، الى ان ادركوا المعرفة الكاملة، واكتملوا بها .. اما سلالة الخاطئين فقد عادت الى مرحلة الصفر، مرحلة العصر الحجري، حيث بدأ منه تدوين التاريخ من جديد ... هذا ما تكشفه لنا علوم حقائق الباطن الانساني - الإيزوتيريك.

وهكذا، فقد صحا انسان ما بعد الطوفان، ليجد ان المعارف التي اكتسبها سابقاً قد طمست في اغوار لا وعيه، وكذلك ايضاً الوسائل التي كانت مباحة لوحدة الوعي التي كان يحيا ضمنها، وصار على الانسان ان يحيا ضمن بعدين او وعيين احدهما ظاهري وآخر باطني. وتحتّم عليه من خلال هذا الواقع الصعب، ومن خلال وعي الظاهر فقط، تلمّس طريق العودة الى المسار الصحيح، والسعي اولاً لتذكّر مراحل تطوره السابق والكامن في وعيه الباطني، وثانياً متابعة المراحل المتبقية للوصول الى وعي المعرفة الكاملة التي هي قدره ... وما عليه لاجل ذلك سوى التعرف الى حقيقة نفسه وتقريب المسافات التي باعدت ما بين طرفي ازدواجية وعيه، الباطن والظاهر ... اليس هذا ما قصده الفيلسوف العظيم سقراط في عبارته الشهيرة: «إعرف نفسك تعرف كل شيء»، هذه العبارة التي ظلت تتردد على الالسن منذ ذاك الحين من غير ان يعرف معناها الحقيقي الى ان اظهرت مؤخرا علوم الايزوتيريك نفسها الى العلن، لتقدم تقنية اعرف نفسك في تطبيق عملي، بحيث تهيئ للانسان امكانية ان يكون هو نفسه المختبر والمختبر في الوقت عينه ...

انسان العصر الحجري

بالعودة الى موضوعنا ... فان انسان العصر الحجري، وفي بداية تواجده الجديد على الارض، كان غافلاً عن كل المعارف التي كان قد توصل الى وعيها سابقاً ... ولم يكن يدري عن نفسه شيئاً، لا عن مصدره ولا عن مآبه، فكان منشغلاً في محاولة التاقلم مع واقعه الغامض، فراح يسعى لتامين المأكل والمشرب والملبس والمسكن، الى ما هنالك من شؤون حياتية ملحة. واستمر على هذه الحال عهوداً طويلة من الزمن، سعى اثناءها، الى تطوير اساليب عيشه بواسطة المعطيات المتواجدة في البعد الظاهري من كيانه، اي بعد النفس البشرية وما تحتويه من طاقات فكرية ومشاعرية وجسدية مادية بحتة ... وبعد ان استقرت اموره المعيشية أخذ يستشف بعض ما اختزن في وعيه الباطني، من خبرات ومعارف سابقة بدأ يتوعى اليها تدريجياً بفعل عوامل كثيرة اهمها، المساعدة الخارجية التي قدمت اليه عبر المرسلين والانبياء ورجالات المعرفة الاجلاء...

في بداية مرحلة التوعية تلك بدات المعرفة تظهر نفسها اولا، عبر فلسفات مختلفة الاراء، ومتشعبة الاتجاهات. وهذه الفلسفات وبالرغم من وفرة المعلومات التي تحتويها، بقيت في حكم النظريات ... ومع مرور الزمن وارتقاء الوعي البشري العام، قدم بعض الحكماء الاغريق الكبار افكارهم المتميزة، ذات المنطق السامي الذي يهدف الى محبة الحكمة (Philo - Sophia) وقد دابت هذه الفلسفة المتميزة على تطوير التفكير وتفعيل المنطق وتنمية المقدرات الذهنية، مما ادى لاحقاً الى ظهور الاديان، حيث تبنّى كل منها المعلومات الفلسفية التي تتسم بالايمان بالله وتوصل الى بعض المعارف المحسوسة لكن غير الملموسة.

اما من لم يخفه هذا النوع من المعرفة، فقد اتجه الى العلوم، حيث تبنت هي ايضاً بعض المعلومات الفلسفية التي تمكنت من اختبارها والتأكيد من صوابيتها، وذلك على الصعيد المادي، اي بواسطة مختبرات العلوم المادية فقط ... فظهرت عندها المعرفة العلمية المادية التي لا زالت تتطور حتى يومنا هذا، مع كل العراقيل التي لا زالت تعترض طريق اكتمالها رغم الانجازات الهامة التي قدمتها للبشرية. هذه العراقيل قد يكون سببها عدم توسّع آفاق رجل العلم للتاكد من ان مساعيه هي سائرة فعلاً بالاتجاه المتكامل ... حيث ان العلوم لا زالت تدور في حلقة المعطيات المألوفة، محاولة استخراج منها معادلات جديدة، وحتى هذه المعادلات اذا ما توفرت فانها لم تؤد سوى الى تطوير القديم نفسه وتحسينه ... بينما قد يكون من الاجدى لرجال العلم، ان تنصب جهودهم على محاولة اكتشاف معطيات جديدة غير مألوفة سابقاً، وذلك ليس لانها لم تكن موجودة، بل لان العلوم لم تبحث في تقبّل احتمال وجودها ... كذلك فان البحث يجب ان يقترن بجرأة الاقدام التي تحلى بها الرواد الكبار الذين لولاهم لما تقدمت العلوم قيد انملة ... وقد يكون ايضا سبب العقبات التي تفترض مساعي العلوم هو انها لا زالت تدور في حلقة المعلومات التي قدمها هؤلاء الكبار ولم تسع الى مواد بحث جديدة، لتوفير معطيات رائدة جديدة، هذا قد يستلزم توسعا افقياً وارتقاء عمودياً في الوقت عينه .. التوسع الافقي يكون من خلال غربلة كل ما هو قديم، لاهمال ما قد استنفد منه ومتابعة تطوير ما قد يمكن الافادة منه بعد، اما الارتقاء العمودي فيكون في اعادة النظر في ابعاد البحث نفسها ... بحيث يعمل على هدم الاسوار التي تقوقعت داخلها مختبرات البحوث العلمية، وازالة الحواجز المادية التي شكّلت دائماً حائلاً مسدوداً بوجه اي تقدم علمي، ووقفت حائلاً بينه وبين الوصول الى اكتماله المنشود في بعديه الافقي والعمودي. وهنا تستحضرني العبارة البليغة التي وردت في كتاب الايزوتيريك «علم المعرفة ومعرفة العلم» من ان العلم لا يطوّر نفسه ... بل يطوّر الوسائل التي بها يتعرف الى المعرفة ...

ان شمولية المعرفة لا تدرك عبر محدودية الوسائل العلمية المستعملة، او عبر تجزئها الى معرفة مادية ومعرفة لا مادية كما هو حاصل، لانها بهذا تفقد عنصر اكتمالها وتكاملها ... فمن عمل على حصر بحوثه في الجزء المادي منها، فانه وبعد ان يستنزف كامل العناصر والمعطيات المتوفرة في هذا الجزء، يستشعر نقصان النتائج التي توصل اليها، ولكنه يظل مسترسلاً في ابحاثه ومعيداً النظر فيما ظن انه قد سها عن استعماله من تلك العناصر والمعطيات نفسها، وهكذا يظل رغم كل توصلاته المهمة يدور في حلقة مفرغة لن توصله الى النتائج المكتملة التي ما زال يحلم بها ...

اما من اتجه نحو استكشاف الجزء اللامادي من المعرفة وحصر ابحاثه فيها، من غير ان يوفر لها المختبر اللامادي الملائم لاختبارها فيه، فانه اكتفى بتحكيم مشاعره الايمانية مستوحياً مما قدمته الفلسفات الاغريقية منها خصوصاً من نظريات متنوعة في المعرفة الما ورائية، اخذاً منها ما يتلاءم وتطلعاته الايمانية، مما ادى الى تعدد المعتقدات وتنوّع المذاهب الروحية، فتجزأ بالتالي حتى الجزء اللامادي من المعرفة، وفقد جوهره الحقيقي ...

ابعاد المعرفة

هنا لا بد من التنويه، ان الفنون، التي هي احد ابعاد المعرفة الاربعة، قد تحررت من كل القيود وانطلقت الى افاق غير محدودة الابعاد، حيث انها ارتكزت في انطلاقتها على قاعدة العلوم المادية، وتوغلت في الجزء اللامادي من المعرفة، تستشف منه ما لم تقر تلك العلوم بوجوده، وتستوحي منه ايضاً ما تحققت عليه معظم المعتقدات الدينية. ولكن حتى للفنون منتهاها، فحين يصل الفنان الى مرحلة الابداع في احد الحقول الفنية، يكون تخرجه في هذا الحقل بالذات اوصله الى جزء من المعرفة، فماذا عن باقي الحقول الفنية، الا يكمن في كل منها جزء آخر من المعرفة ؟.

نستخلص من كل ما تقدم، ان بلوغ المعرفة المتكاملة يتم عبر الاطلاع على سائر الفلسفات وطرق باب جميع الاديان والاحاطة بشتى العلوم واتقان كل الفنون ... فهل ان عمراً واحداً مهما طال يحياه الانسان على الارض يكفيه لبلوغ المعرفة المتكاملة ؟...

ان هذا قد يتوضح من خلال الابحاث اللاحقة التي ستتناول كل ناحية علمية على حدة، حيث سيرتكز البحث على التفكير بالقاعدة التي انطلقت منها، وتحليل مراحل تطورها، وتمييز نقاط قوتها من نقاط ضعفها، وبهذا قد نستنتج الاسباب التي ادت الى محدودية النتائج التي توصل اليها اي علم من العلوم مقارنة بما لم يتوصل اليه، وبالتالي ايجاد الحلقة الناقصة التي منعت تواصله مع شمولية المعرفة للاكتمال بها ...

انطوان صبّاغ

(يتبع)